مسؤوليّة
«مثقّفٍ ما بين الحضارات»

د. سماح ادريس

كُلّما هممتُ بالكتابة عن إدوارد سعيد تذكّرتُ لقائي الأوّل به عام ١٩٨٦ . كنت ماأزال طالباً في جامعة كولومبيا، وأرغبُ في أن أدرس على إدوارد سعيد مادّةً في الأدب المقارن. أدخلتني سكرتيرته بعد أن نظرتْ إليّ ـ كما حَدَسْتُ ـ من المنظار المثبت في باب مكتبه. فلسطيني مؤيّد للفلسطينيّين و«للإرهاب»: تلك كانت «صبغته» عند الصّهاينة المنتشرين في كولومبيا، وقد تعرّض بسببها لمضايقات المنظّمات الصّهيونيّة وتهديداتها وتخريباتها المتعمّدة. وأمّا أنا فكنتُ أحمل في نفسي انبهاراً عظيماً بذلك العربيّ الّذي يفحم الأمريكيّين والصّهاينة بقوّة حجّته وطلاقة إنكليزيّته وسعة معرفته. وكنتُ أحمل لَهُ، مع ذلك، نوعاً من الشكّ: فقد كانتْ ـ وماتزال ـ خلفيّتي السّياسيّة قائمةً على رفض وجود «إسرائيل» ورفض الاعتراف بها ورفض التّفاوض معها؛ وكان إدوارد سعيد ـ ومايزال ـ شأنه في ذلك شأن الغالبيّة السّاحقة من العرب المقيمين في أمريكا يجد في مثل مواقفي مثاليّةً صبيانيّةً، ويصرّ على أنّ مقارعة الإسرائيليّين في الحلبة الثّقافيّة وجهاً لوجه هي الكفيلة بتمزيق الأقنعة الّتي يلبسونها ويلبسها حلفاؤهم الأمريكيّون.

انتظرتُ إدوارد سعيد وقتاً طويلاً كي ينهي مخابرته. نفرتُ منه آنذاك، وفكّرتُ في مغادرة مكتبه (وبالمناسبة: فأنا مازلت ـ رغم توطّد صداقتي به الآن ـ انتظر في مكتبه انتهاءَ مخابراته؛ لكنّ نفوري منه زال وحلّ محلّه شيءٌ من التّململ). هممتُ بالمغادرة، فأشارَ عليّ بالجلوس. جلست. لكنّه ـ لدهشتي ـ استمرّ في تلقّي المكالمات، رغم أنّني كنتُ قد سجّلْتُ اسمي في لائحة زوّاره. صبرتُ، وقلتُ لنفسي إنّ العلم أَهْلٌ ـ أحياناً ـ لأن يذلّ المرءُ نفَسه في سبيله. أنهى مخابراته. تحدّثتُ معه بالإنكليزيّة؛ فأنا لم أكن أريد أن يقبلني في صفّه لأنّي عربيّ لا غير. أحسَّ ـ من لكنتي وتلعثمي، وربّما من شاربي (الّذي لم أكن قد حلقته بعد) ـ أنّني من عالم آخر، ثم لمح كتاباً بالعربيّة كنتُ أحمله مع كتب أخرى. وارتسم السّرور على وجهه حين علم أنّني لبناني. سألني عن بيروت، وعن الفلسطينيّين. قال إنّ «أبو عمّار» ـ رغم كلّ شيء ـ رمزٌ لفلسطين. لم أُعلّق. «لا» قال، «الظّاهر أنّك رفضاوي». لم أنفِ التّهمة. تحدّثنا طويلاً. نسيتُ هدفَ زيارتي. ثمّ قال لي: «هل ستكتب رواية اسمها مانهاتن بعد أن كتب أبوك الحيّ اللاّتيني»؟ ضحكت، وتساءلت «أين جانين الأمريكيّة، يا حسرة؟!» وثِقَ بي. الحمدلله! أعطاني رقم زهدي طرزي ـ ممثّل منظّمة التّحرير آنذاك ـ وعنوان بيته، وقال لي: «صديقي شفيق الحوت (مدير مكتب منظمة التّحرير في بيروت آنذاك) له ابنتان تسكنان ذلك البيت. تَعَرَّفْ إليهما وعَرِّفْهما إلى نيويورك». استجبْتُ لطلبه. وخرجتُ من مكتبه.

ومنذ ذلك اللّقاء أصبحتُ «ضابطَ الارتباط» (أو واحداً من «ضباط» الارتباط) بين إدوارد سعيد من جهة، و«النّادي العربي في جامعة كولومبيا» ثمّ «الشّبكة المُدافعة عن الحريّة الأكاديميّة الفلسطينيّة» (**Pafnet**)، و«تجمّع طلاّب كولومبيا وبارنرد المناهض للتدخّل الأمريكي في الخليج» من جهة ثانية. فنظّمنا ندوات ومحاضرات ومؤتمرات هامّة شارك إدوارد سعيد في كثير منها، وشارك فيها أيضاً رشيد خالدي، وابراهيم أبو لغد، وكريستوفر هيتشنز، وإقبال أحمد، وجو ستورك، ونورمان فينكلستين، ونعوم تشومسكي، وأنطون شمّاس، وحليم بركات، ولوري براند، ونوبار هوفسبيان، وفؤاد مغربي، وإميل ساحليّة، وجورج صليبا، وهشام ملحم، وشيلا راين، وريتشارد بُوليت، وليسا أندرسون... وكانت مشاركة إدوارد سعيد في بعض هذه النّشاطات ضمانةً أكيدة لنجاحها، وكسباً محتّماً للقضيّة العربيّة ولقضايا شعوب «العالم الثّالث» وفي مقدّمتهم شعبُ فلسطين.

***

لن أتحدّث عن كتابات إدوارد سعيد النقديّة والموسيقيّة والحضاريّة والسّياسيّة؛ فسوف يقوم بذلك من هو أكثر جدارة. بل دعوني أحصر حديثي ههنا في أثر إدوارد سعيد فينا نحن ـ بوصفنا طلاّباً عرباً وأمريكيّين في السّاحة الأمريكيّة.

لقد مثّل إدوارد سعيد لنا «المثقّف المسؤول» بامتياز. فقد كان على الدّوام شديدَ الأهبة للتّحدّث في موضوع محاضرته. يأتي، وفي جعبته مقالٌ كاملٌ وقصاصات جرائد وتقاريرُ حكوميّة وأرقامٌ موثوقة. ويتدفّق في الحديث ـ بلغة آسرة تُعتبر من أكثر لغات النّاطقين بالانجليزيّة تماسكاً وإبداعاً ـ فيشدّ انتباهَ النّاس ويربك أصحابَ القناعات المعادية. أذكر في مؤتمرٍ نظّمناه في جامعة كولومبيا (وعنوانه: «الهويّة الوطنيّة الفلسطينيّة») أنّ مسؤولة حزب «اللّيكود» الصّهيوني الفاشي انفجرت بالبكاء بعد أنْ أفحمها سعيد بما يقرب الهُزَء منها! وحدث، في مناسبة أخرى نظّمناها (بأسم «تجمّع الطلاّب المناهضين للتّدخلّ الأمريكي في الخليج») أن انبرى لسعيد طالبٌ صهيوني متطرّف (هل في الصّفة الأخيرة تكرار لا معنى له؟) يسوق حججاً وأمثلة معروفة في الخطاب الإسرائيلي؛ وكان سعيد يقاطعه بكلمة أو جملة فيرتبك الصّهيوني حتّى تهاوتْ جميعُ حججه، وصفّق الحضورُ لإدوارد سعيد إعجاباً وتقديراً. ومع ذلك فإنّ «نجوميّة» سعيد لم تدفعه في أيّ وقت من الأوقات إلى الكسل والانكفاء؛ بل كان على الدّوام مطّلعاً على آخر الكتب والتقارير والأبحاث، ولم يكن شأنَ أكثر أساتذة الجامعات (في الولايات المتّحدة وهنا، ويا للأسف!) ليجتَرَّ المعلوماتِ الّتي اكتسبها منذ أيام الدّكتوراه. وهذا ما جعل إدوارد سعيد ـ في أعيننا ـ مثقّفاً عصريّاً وراهنيّاً بامتياز ـ ومن هنا أيضاً احترامُهُ لـ «مسؤوليّته» بالمعنى الأكاديمي ـ لا السياسي وحده ـ وما يتّصل بهذا المعنى الأكاديمي من احترامٍ لشرف الكلمة ولمقتضيات العلم والبحث.

ومثّل لنا إدوارد سعيد أيضاً ذلك التّحدّي الّذي يواجهه كُلُّ إنسانٍ قوميّ يريد أن لا تأسره ارتباطاتُهُ القوميّةُ وأنْ لا تغيّبه ـ في الوقت نفسه ـ تطلّعاتُه في أن يكون جزءاً من عالمٍ واحد وجَسَدٍ إنسانيّ واحد. ولقد أصابتْ فريال غزّول حين أشارت إلى عُدّة إدوارد سعيد الّتي تؤهلّه لممارسة ذلك التّحدّي:

> إنّ أروَع مزيّة في كتابات سعيد تبقى... محاولاتِه الجنينيّة لربط طرفيْ حياته [الغربيّة، والإسلاميّة/ العربيّة] في مشروع تجريبيّ يهدف إلى التّحقّق الذّاتي. وكان الأدبُ المقارنُ هو خلفيّته التّدريبيّة [على صعيد الممارسة الأكاديميّة]؛ فهو ـ لذلك ـ مسلّحٌ بتقنيّات ومهارات تجيز تجاوُرَ الحقائق المتباعدة والأوضاع المختلفة والتراثات غير المتشابهة، من أجل الكشف عن المتشابهات والهويات والاختلافات والتباينات والمفارقات... **(The Edward Said Reader), ed. Micheal Sprinker, 1992.**

أقول: شكّل نموذجُ إدوارد سعيد لنا، بوصفنا طلاّباً عرباً نعيش في الغرب، تحدّياً هائلاً. فلقد كنّا أكثرنا ـ ومانزال ـ لا نؤمن بأن في وسعنا أن نكون «بين الحضارات». وكنّا نؤمن أنّ هويّةً ما فينا ـ هويّةَ الغربة، أو هويّةَ جواز السّفر ـ هي الّتي ستتغلّب في النّهاية، حتّى أتى مَنْ حاول ـ بممارساته وكتاباته ـ أن يخلخل قناعاتنا، وإنْ بصعوبة. وأنا أشعر، حتّى هذه اللّحظة، بهزّة عنيفة إذْ أقرأ كلمات إدوارد التّالية:

> إنّ الشّعور بأنّني بين الحضارات لهو شعورٌ قويٌّ جدّاً جدّاً. وأستطيع القول إنّ المجرى الأقوى الّذي ينساب في حياتي هو حقيقة أنّني آدخل الأشياء وأخرجُ منها باستمرار، و[أنّني] لستُ في الحقيقة جزءاً من إيّما شيءٍ وقتاً طويلاً! (راجع المقابلة الّتي أجراها معه إيمري سالوسينزكي في كتاب الأخير المعنون النّقد في المجتمع: مقابلات، ص ١٢٣).

ومثّل لنا إدوارد سعيد الإنسانَ العربيّ الّذي لم تدفعه آلياتُ الاستلاب في المجتمع الأمريكي، ولا إغراءاتُ المؤسّسة الإعلامية والعسكريّة إلى أن يصبح محض «مُخبر محلّي» **Native informant** كالّذي تحفل الولايات المتّحدة بنماذج كثيرة منه (أهمّها على الإطلاق: فؤاد عجمي وكنعان مكّيّة المعروف بسمير الخليل). بل كانَ على الدّوام مدافعاً عن القضايا العربيّة العادلة (لا الدّيكتاتوريّات العربيّة)، وعن الإسلام حضارة وثقافة (لا أصوليّة وتزمّتاً)، منكراً الإرهاب الرسمي الأمريكي على الصُّعد العسكريّة والإعلاميّة والاقتصاديّة. وإدوارد سعيد ـ في هذا الصّدد ـ يستوي هو ونعوم

تشومسكي على هرم «مؤسّسة» مضادّة للفكر السّائد (mainstream thought): «مؤسّسةٍ» «منشقّة» تخترق حجبَ الأكاذيب لا لتبحث عن أكاذيب جديدة (كما يفعل كثيرٌ من المعارضين والمنشقّين) بل لتكشف آفاق الموضوعيّة والحريّة.

ولاشكّ أن أكثر ما جذبني ـ شخصيّاً ـ إلى عمل ادوارد سعيد هو قدرتُه الفائقة على أن يضع الأولويّة لقيم الإنسان، في كلّ مكان، وفوق كُلّ قضيّة أخرى. فهو ـ مثلاً ـ لم يندفعْ إلى تأييد الاجتياح العراقي للكويْت كراهيةً بسياسة الولايات المتّحدة تجاه العرب؛ وهو لم يغفر للكويتيّين عقابهم المروّع للفلسطينيّين المسالمين ولم يغفر ـ في الوقت ذاته ـ للقيادة الرّسميّة الفلسطينيّة تأييدها للرّئيس العراقي صدّام حسين وتجاوزات بعض المنظّمات الفلسطينيّة في الكويت إبّان الاجتياح. ولعلّ ما دفع إدوارد إلى هذه المواقف هو أخلاقيّته الأكاديميّة أوّلاً، ونفوره من الأخلاقويّة الرّسميّة الأمريكيّة الكاذبة الّتي دأبتْ على كيْل الأمور بمكياليْن: فلا تنظرُ إلى القمع الإسرائيلي للفلسطينيّين واللّبنانيّين، ولا إلى قمع الأنظمة العربيّة الّتي تؤيّدها الولاياتُ المتّحدة؛ بل تكتفي هذه الأخلاقويّة المزيّفة بأن تسعى جاريةً في خدمة سياسة الإدارات الأمريكيّة الضيّقة الّتي تسكت عن قمع الفلسطينيّين وشعب البوسنة، وتنتحب على مقتل مستوطن إسرائيلي أو اغتصابٍ في الكويت، ثمّ تدين الشّيوعيّة في الاتّحاد السوفياتي (سابقاً) وتؤيّد هجومَ يلتسين في روسيا (الحديثة) على البرلمان والديموقراطيّة!

* * *

ولا غرو أنّ مواقف سعيد هذه قد ولّدت له أعداء كثيرين ـ في الجامعات، ومعاهد التّعليم، والإدارة الأمريكيّة. لكنَّ ظلم ذوي القربى كان أشدّ مضاضةً على إدوارد سعيد الفلسطيني العربي العالمثالثي. ولقد كان أبرز منتقدي سعيد من بين المسلمين والعرب ومثقّفي العالم الثالث إعجاز أحمد، وصادق جلال العظم، ومهدي عامل ـ هذا دون أن نغفل بعضَ «مثقّفي» منظّمة التّحرير الفلسطينيّة (ذلك النّظام العربي الّذي لم يملك أرضاً ولا بلديّة بعد!) الّذين تسمعهم ينتقدون إدوارد سعيد همساً.

فلقد ظُلِم سعيد، أوّلاً، حين اتُّهِمَ بأنّه يدعو إلى قيام أصوليّة إسلاميّة في مواجهة الغزو الامبريالي الغربي. والحقّ أنّه لم يدعُ ـ وهو العلماني والدنيويّ ـ إلى ذلك أبداً، وإنّما دعا إلى نوع من التكاتف والحوار بين الدّول الإسلاميّة (بما في ذلك إيران وتركيا) الّتي يجمع بينها تراثٌ حضاريٌّ إسلامي ومصالحُ حيويّةٌ متشابهة.

وظُلِم ثانياً حين اتُّهم بأنّه يقسم العالمَ إلى ثنائيّتيْن غير قابلتيْن للالتقاء: الشّرق والغرب. واعتَقَدَ بعضُ المثقّفين العالمثالثيّين ـ أو هم حاولوا الإيهام ـ أنّ إدوارد سعيد يرى في الغرب كُلّه عداءً للشرق، وراحوا يضربون الشّواهد على تعاطف ماركس مع الشّعوب الشّرقيّة، وتأييد لينين للشّعوب المسلمة. والحقّ أنّ إدوارد سعيد مسؤول ـ في رأيي ـ عن بعض اللَّبْس في كتابه الاستشراق، ولاسيّما في حديثه عن مفهوم ماركس للاستبداد الآسيوي ودور بريطانيا «الثّوري» في تقدّم الهندَ؛ ولكنّ ذلك التّقصير لا يستأهل ذلك الهجومَ الصّاخب الّذي شنّه عليه الماركسيّون العرب، ولاسيّما حين ندرك أنّ التّفكير الماركسي ذاته يفرض على الإنسان الماركسي أن يرى أنّ أفكار ماركس لابدّ أن تكون قد نبعتْ ـ أساساً ـ من مركزيّة أوروبيّة هو ابنُها رغم ثورته عليها، وأنّ تلك المركزيّة لابدّ أن تكون قد تسرّبت ـ بمقدار قليلٍ أو كثير ـ إلى ماركس. وأمّا الاستثناءات الّتي يذكرها منتقدو سعيد ضمن «الشّرعة الفكريّة الغربيّة» فهي صحيحة وهامّة، لكنّها لا تنفي فكرةً أساسيّةً في الاستشراق، وهي أنّ هذه «الشّرعة» تحفل بالتّمييز الحضاري ضد العرب والمسلمين وبمركزيّة غربيّة تُعامل الآخر بدونيّة مطلقة.

وظُلِمَ سعيد ثالثاً حين اتّهمه البعض بأنّه يقدّم نصائحَ للإدارة الأمريكيّة بألاّ تشدّد القمع على الشّعوب العربيّة، وأوّلوا ذلك بأنّ إدوارد سعيد يطالب الأمريكيّين بقمع ملطّف! ونسي المتّهِمون أنّ إدوارد سعيد لا يرفض أن يقدّم «النّصائح» لأحد ـ وإنّ شوّهوا مضمونَ هذه النّصائح تشويهاً تامّاً، باقتطاعها من سياقها وقراءتها حرفيّاً سواءً بسواء ـ؛

ونسُوا أيضاً أنّ سعيد رفض إغراءات الإدارة الأمريكيّة، وحين حاضر في مقرّ القيادة المركزيّة الأمريكيّة أمام خمسمئة كادر عسكري أمريكي عُرض عليه عقدٌ بالعمل مستشاراً لدى القيادة فرفض مؤكّداً «أنّ مهمّة المثقّف أبعدُ من السّعي وراء المال» (جريدة الحياة، ١٨ تمّوز ١٩٩٣).

وظلمه اليسارُ الفلسطيني، رابعاً، حين اتّهمته الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين ـ مثلاً ـ بأنّه قدّم في كتابه مسألة فلسطين «تنازلاتٍ مجّانيّةً للصّهيونيّة»، وبأنّه «فشل في تعريف الصّراع بأنّه صراع طبقي ضدّ الامبرياليّة والصّهيونيّة لا صراع بين شعبين»، مرجعة (أي الجبهة المذكورة) نظرة سعيد إلى نطاق «البورجوازية الإنسانوية» PFLP Bulletin, no. 47. أم تـرانـا نظلم ذلك اليسارَ، ولاسيّما إذا أخذنا في عين الاعتبار أنّ الاتّهامات تلك أتتْ في أوج النّضال الفلسطيني، فكان صعباً على اليسار أن يقبل رفض سعيد عام ٧٩ للكفاح المسلّح «وسيلةً أساسيّة للفلسطينيّين» وأن يقبل «دعوته إلى دولتين ومناشدته المجلسَ الوطنيَّ الفلسطينيَّ تبنّي مشروع مقاومة مدنيّة جماهيريّة» (لا مقاومة مسلّحة)؟

وظلمته القيادةُ الرّسميّة لمنظّمة التّحرير، خامساً، حين رفضتْ أن تأخذ بخبرته في السّاحة الأمريكيّة، وواصلت اعتمادَها لا على المجتمع المدني الأمريكي بل «على سماسرة (وسطاء)»، وواصلت دعمها لممثّلين فلسطينيّين «فاسدين أو غير مؤهّلين». لقد تجاهلته قيادةُ منظمة التّحرير، وهو الّذي عدّه البعضُ ـ ومنهم مايكل سپرينكر ـ «النّاطِقَ الرّسميَّ الأبرز طوال ما يزيد على الأعوام العشرين الأخيرة للقضية الفلسطينية في الولايات المتحدة وفي بريطانيا كذلك» (The Edward Said Reader, ص ٢). وهو الّذي صاغَ «إعلان الاستقلال» بالانجليزيّة، وكتب أفضلَ ثلاثة كتب إنكليزيّة معنيّة مباشرةً بالإنسان الفلسطيني: مسألة فلسطين، وما وراء السّماء الأخيرة، ولوم الضّحايا. وقد ردّ إدوارد على «المنظّمة» مراراً، وهاكُمْ واحداً من ردوده:

> الجهل ليس عذراً. لقد شاركت منظّمةُ التّحرير الفلسطينيّة منذ عام ١٩٧٤، وبشكل ثابت، في نشاطات الأمم المتّحدة، وتوفّرتْ لديها الفرصةُ لدراسة الأوضاع في الولايات المتّحدة... إنّ السّؤال الّذي أودّ طرحه هو التّالي: متى ستسعى منظّمةُ التّحرير إلى استخدام الإمكانيّات المتوفّرة لديها لكي تتعامل مع الولايات المتّحدة بأسلوبٍ جدّي ومواجه؟... ففي هذه البلاد الكثيرُ من المؤسّسات والجامعات والاتّحادات المهنيّة والجاليات الّتي تدعمنا دعماً تامّاً. لكنّها لم تُعبّأ ولم تجْرِ الإفادةُ منها، ولم يُطلبْ منها عملُ أيّ شيء. فكُلُّ شيءٍ قد رُتِّبَ بين تونس وواشنطن من خلف الأبواب المغلقة. إنّهم [مسؤولي منظمة التّحرير] يأتون هنا [إلى أميركا]، ثمّ يغادرون، وهذا كُلّ شيء. إنّ حاجتنا إلى وجودٍ فلسطينيّ في الولايات المتّحدة يجب أن يُسَوَّى ويُدرسَ بعناية، فيكونَ وجوداً ذكيّاً ومقاوماً... وإلّا فلن نستطيع أن نحصد ثمرات النّضال الشّجاع الّذي يخوضه الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، وسيكون موتهم عبثاً (القبس، خريف ١٩٨٩).

* * *

لستُ هنا في معرض ردّ الظّلم عن سعيد؛ فممارساته وكتبه وما تكشّف الواقع السّياسي عنه وما سيتكشّف عنه في المستقبل هي الّتي ستنصفه أو تظلمه. ولذلك، فأنا سأكتفي ـ إلى جانب الكلمات السّابقة ـ بترجمة ثلاث مقالات (هي «الهويّة، السّلطة، الحريّة..»؛ و«المثقّفونَ منفيّين...»؛ و«تحيّة إلى تحيّة كاريوكا») ومقابلةٍ واحدةٍ أجرتها معه باربارا هارلو. ولابدّ أن يعثر القارئ في هذه المقالات على ما يرفضه أو يختلف معه؛ ولا ضيْرَ في ذلك، بل إنّ خلافيّة أفكار سعيد مكوِّنٌ أساسيّ مِن أهميّته مثقّفاً عربيّاً/ أمريكيّاً. وإذا كان ـ في الختام ـ مسموحاً للمرء أن يهدي تعريباً لنصوصٍ كتبها غيرُهُ (وقد كابدتُ في ذلك التّعريب مكابَدةً عظيمة أحياناً)، فليكن ذلك الإهداء إلى أصدقائي ورفاقي في «النّادي العربي في كولومبيا» وإلى «تجمّع الطلّاب المناهضين للتدخّل الأمريكي في الخليج»، وأخصّ بالإهداء: ناصر، وسناء، وأحمد، وأحمد (هناك أحمدان)، ونانسي، وڤيكي، وآندي، وعمر، تعبيراً عن اعتزازٍ بالغٍ بالدّور الّذي لعبوه في نصرة القضايا العربيّة والتّقدميّة، وعربونَ وفاءٍ.. لهذا الدّور الّذي اضطلع به إدوارد سعيد ما يزيد عن عقديْن.